الفصل

٤

ثم ذاعت تعاليم اليوجينيا

ذات يوم من أيام يناير سنة ١٩٠١، ترك كارل بيرسون ـ للحظة ـ أعمال البيومترية بكلية الجامعة في لندن ليكتب إلى صديقه فرانسيس جالتون عن موضوع له "أهمية قومية بالغة: التربية من السلالات الأصلح". كتب لجالتون يقول إن بريطانيا تحتاج إلى "نصيحة في هذا الوقت المناسب، إلى شيء يذكّر المفكرين بأهمية قضية الخصب في هذا البلد". أضاف أنه ليس ثمة من تُسمع كلمته في هذا الموضوع مثل جالتون نفسه، فهو على أية حال "مَنْ بدأ المعالجة العلمية للوراثة".

كان جالتون، وقد بلغ من العمر سبعة وثمانين عاما، مريضا، لكنه كان لايزال المتحمس النشط لليوجينيا. ولقد تحرك في السنين القليلة التالية ليمتلك المنصة يدافع عن علم تحسين السلالة البشرية. لم تكن آراؤه بالنسبة لليوجينيا في القرن الجديد تختلف كثيرا عن آرائه أيام الذروة في حكم الملكة فكتوريا، غير أن الاستجابة لها قد تغيرت. فلقد توجه عام ١٩٠٤ جمهور غفير يضم أطباء وعلماء بل وحتى هـ. ج. ويلز، ليستمعوا إليه في جمعية علم الاجتماع بلندن، ثم يُطبع خطابه على جانبي الأطلنطي. مُنح جالتون في عام ١٩٠٩ وسام الفروسية، ثم منح في العام التالي ميدالية كوبلي ـ أعلى مراتب التكريم لدى الجمعية الملكية. وفجأة، وفي السنين الأخيرة من حياته، اتخذ موقعه الصحيح هو ويوجينيته داخل مجتمع المفكرين الأنجلو أمريكي.

قال بيرسون مبتهجا لجالتون عام ١٩٠٧ (لقد تسعد إذا ماعرفت مدى ذيوع كلمتك "اليوجينيا"، لقد سمعت بعض السيدات المحترمات يقلن اذا مارأين أطفالا ضعافا: "آه! لم يكن ذلك زواجا يوجينياً!"). ساعدت كتابات بيرسون أيضا في إثارة المناقشات اليوجينية بين عامة الناس. كان معظمها مناقشات جادة (كانت نسبة مَنْ لم يأخذ مأخذ الجد تحذيراته الكئيبةَ عن

مستقبل المجتمع البريطاني نسبة ضئيلة)، وكان البعض منها هزلي (تقول دراساته عن مرض السل إن الطفل البكر عادة مايكون أضعف من بقية أخوته، التقط الصحفيون فورا هذا الموضوع ليقولوا إن مجلس اللوردات - وأعضاؤه من الذكور البكر - لابد أن يكون متخلفا). ثمة امرأة من لندن - كانت حاملا - لاماركية متطرفة شغوفة بالمسرح والحفلات الموسيقية، تحدثت مع هـ. ج. ويلز وغيره من الكتاب، ثم أنجبت عام ١٩١٣ طفلة أسمتها "يوجينيا" اعتُبرت أول طفل يوجيني بانجلترا. تأسف طبيب من برايتون لأن كلمة "يوجينيا" قد أصبحت "مجرد لفظة شعار تخفي وراءها كل هراء قد يراه أي مهووس ليبتلى به العالم". قال إن الاجتماعات اليوجينية ستكشف "كل المالتوسيين الجدد، ومعارضي التطعيم ضد الأمراض، ومعارضي التشريح، والعلماء المسيحيين، والثيوصوفيين، والمولرين (ولهم طرق غريبة في الاستحمام وفي التنفس بعمق) والنباتيين وغيرهم! سيرفرانسيس جالتون: يالك من مسكين!".

قام الآلاف في أمريكا بملء "سجل صفات العائلة" وأرسلوا الاستمارات بالبريد إلى مكتب التسجيل اليوجيني التابع لتشارلس ب. دافينبورت، بكولد سبرنج هاربور، لونج أيلاند. كتب الطالب ف. سكوت فيتزجيرالد أغنية "الحب أو اليوجينيا" لتنشر في عرض ببرنستون عام ١٩١٤ ("يارجال! من ترى تحبون أن يأتي ليصب لكم الشاي/ قبلاتٍ تشعل النار في قلوبكم/ أمْ حبُّ سيدة عفيفة"). تدفقت الطلبات في كلا البلدين على المحاضرين في اليوجينيا، من الجمعيات الأخلاقية والنقاشية والطبية والفلسفية، ومن المدارس والجامعات، ومن نوادي النساء واتحادات الأطباء والممرضات، وجمعيات الشبان المسيحيين. وفي لندن، فتحت الليدي إيميلي لوتبينز والليدي أوتولاين موريل قاعات الاستقبال في منزليهما للمتحدثين في اليوجينيا، واحتشد الطلبة لسماع المحاضرات عن هذا الموضوع في كلية بدفورد للبنات. وأخذت الجرائد البريطانية والأمريكية تنشر المقالات عن اليوجينيا، وظهر عدد كبير من مثل هذه المقالات في المجلات السيارة، ولم يعد يمر عام دون أن يظهر فيض من الكتب عن اليوجينيا، بأقلام علماء مثل دافينبورت أو كتاب عاديين متحمسين. كان كل ماينشر يعلن الولاية لفرانسيس جالتون، وكان الكثير يكرر بيانات ونظريات دافينبورت وبيرسون ومعاونيهما.

ثم اندلعت الحرب، فتراجع الحديث العام عن اليوجينيا إلى الظل، وإن ظل منظّرو اليوجينيا في بريطانيا وأمريكا يبثون همومهم كتابةً عن أثر الحرب على نوعية البروتوبلازم القومي. كانت الحرب والعسكرية بالنسبة للبعض مُفسدة للصفات الوراثية فسواء أُنشئت الجيوش بالتجنيد

الاجبارى أو التطوعى، فالحرب تأخذ الأفضل والأشجع من الرجال وتعرضهم للموت، ربما قبل أن يتمكنوا من الانجاب. ثم انها أيضا تترك الأقل صلاحية لينجب الجيل التالى. ولقد وافق حتى المنظّرون الذين يشكُّون فى هذا التحليل على أن الخسائر فى ميدان المعركة تعنى خفض نسبة الذكور إلى الإناث ممن فى سن الزواج. توقع البعض نتائج يوجينية طيبة - فمن سيتبقى من الرجال سيتزوج من أجمل النساء وأقدرهن، بينما توقع آخرون النتيجة العكسية، إذ ستتزاحم النسوة خلف الرجال، حتى الحقير منهم.

أيا كانت النتيجة فقد تجدد الاهتمام العام باليوجينيا بعد الهدنة، وبقوة جعلت من فكر جالتون جزءا من المناسك الدنيوية فى عشرينات هذا القرن، لايشبه الا الجنون بآينشتاين. كان ألبيرت أ. ويجام واحدا من أوائل من روّج لهذه العقيدة، وكان صحفيا ومؤلفا ومحاضرا. بدأ ويجام يعلم نفسه اليوجينيا قبل الحرب مباشرة، فقام بزيارات للوراثيين ولمكتب دافينبورت للسجل اليوجينى. شرع يضمّن اليوجينيا فى محاضراته وابتدأ يوزع استمارات سجل العائلة على مستمعيه لملئها وإرسالها الى كولد سبرنج هاربور. طفق ويجام خلال العشرينات يروج لليوجينيا فى مقالاته وفى ثلاث من أوسع الكتب انتشارا، من بينها كتاب "الوصايا العشر للعلم الحديث" الذى كان أكثر الكتب مبيعا عام ١٩٢٣. وبينما كان الكثيرون يكتبون فى تعقل عن التعاليم اليوجينية، برز ويجام بسبب الطريقة التى دمج فيها العلم اليوجينى بشئون الحكم والأخلاقيات والدين. فاليوجينيا "ببساطة هى بروز القاعدة الذهبية فى مجرى البروتوبلازم". والحق أن المسيح لوعاد فى عشرينات هذا القرن، إذن لأوصانا بوصية جديدة: "القاعدة البيولوجية الذهبية، القاعدة الذهبية الكاملة للعلم: قَدِّم لِمَنْ وُلِدَ ولمن لم يولد بعد، ماتحب أن يقدمه لك مَنْ وُلِد ومَنْ لم يولد بعد". كان البيولوجيون يعتبرون ويجام شخصا غير دقيق وخفيف الروح، لكنه كان مؤيدا للعلم، مؤيدا للبيولوجيا، مؤيدا للتطور، وفى زمن التجريب فى مجالات الفكر، لاشك أن العلماء قد غفروا له أخطاءه إكراماً للراية التى يحملها.

استمد رواج اليوجينيا طاقَتَه من المجهودات التنظيمية لمؤيديها. أُنشئت "الجمعية القومية للتربية اليوجينية" فى بريطانيا عام ١٩٠٧ بتأثير جالتون، وقد ذكر عضو مؤسس فى حديث لجالتون أن "هدفها هو إثارة الاهتمام... فهى على الجملة جمعية دعائية". تردد جالتون فى الالتحاق بها لكنه قبِل العضوية عام ١٩٠٨، ليُنتخب رئيسا فخريا لها. ظهرت فروع للجمعية فى برمنجهام وكيمبريدج ومانشستر وسوثهامبتون وليفربول وجلاسجو، وسيدنى باستراليا.

كما ظهرت جماعات يوجينية محلية عبر الولايات المتحدة، من بينها جمعية جالتون التى كانت تجتمع بانتظام فى المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى بنيويورك، ومؤسسة تحسين السلالة فى باتل كريك بميتشجان، وجمعيات التربية اليوجينية فى شيكاغو وسانت لويس وويسكونسن ومينسوتا وبوتاه وكاليفورنيا. انتشرت الأفكار اليوجينية إلى جماعات نذرت نفسها للتربية الجنسية والصحة الجنسية، وتجلت فى مسابقات فى صحة الطفل امتدت إلى نحو أربعين ولاية قبل الحرب. بُذلت مجهودات متعددة - شجعها دافينبورت، وألكسندر جراهام بيل، ولوثر بيربانك - لتنظيم اليوجينيا على أساس قومى، على نهج الجمعية البريطانية، وبلغت ذروتها بإنشاء الجمعية الأمريكية اليوجينية عام ١٩٢٣، التى فرخت بسرعة ثمان وعشرين لجنة بالولايات وفرعا بجنوب كاليفورنيا.

لم يزد عدد الأعضاء المشتركين فى الجمعية البريطانية عن ألف وسبعمائة، أما الجمعية الأمريكية فربما لم يتعد العدد فيها ثلثى هذا، لكن افتقار المنظمتين إلى العدد الكبير قد عوضته "مناصرة متميزة من الطراز الأول" - كما توقع عضو بريطانى قديم. فلقد أثبتت الجماعات المحلية الانجليزية والأمريكية فى قوائم أعضائها كبار الشخصيات، كما ضمت المجالس القومية عددا من البارزين من العلماء الاجتماعيين وكبار العاملين ورجال الدين والأطباء ونظار المدارس والمفكرين، وبعض فرسان المملكة - فى بريطانيا. وفى عام ١٩١١ وافق اتحاد جامعة اكسفورد بنسبة ٢ : ١ على مبادىء اليوجينيا. جذبت اجتماعات الجمعية اليوجينية فى كيمبريدج قبل الحرب المئات من الناس، بينهم كبار موظفى الجامعة، وعلماء حصلوا على جائزة نوبل، وكبار أساتذة الجامعة، والشاب جون ماينارد كينز. أما المحرك الرئيسى فى الجمعية الأمريكية لليوجينيا فكان اقتصادىٌ جامعة ييل الذائع الصيت المدافع عن الصحة العامة: إيرفنج فيشر. وكان رئيس الجمعية البريطانية (من ١٩١١ وحتى ١٩٢٨) يحمل إسماً مثيرا بالنسبة لقضايا السلف - الميجور ليونارد داروين، إبن تشارلس داروين.

اعتقد اليوجينيون الأنجلو أمريكيون - مثلما اعتقد جالتون من قبلهم - أن الثورة اليوجينية تحتاج قبل حدوثها أن يثقف الجمهور بحيث يصبح "مهيئا يوجينيًا". وفرت الرسوم والهبات الاعتمادات المالية للجمعيات اليوجينية فى كلا البلدين لتدفع تكاليف المحاضرين والاجتماعات. وعلى نهاية عشرينات هذا القرن بلغت الميزانية السنوية للجمعية البريطانية مبلغا متواضعا قدره ٣٥ ألف جنيه، أما الميزانية السنوية للجمعية الأمريكية، والتى كانت فى البداية بضعة

آلاف من الدولارات، فقد زودت بمنح تبرع بها جون د. روكيفلر وجورج إيستمان وفيشر نفسه، لترتفع الى أربعين ألف دولا على نهاية العقد. كان جزء كبير من ميزانية الجمعية البريطانية ينفق على مجلة فصلية هى "يوجينيك ريفيو"، وهى مجلة رأى جالتون في بادى الأمر أنها "ضعيفة لحد ما" وإن سلَّم بأنها قد تتحسن. والواقع أنها تمكنت من أن تقيم نفسها لتنتشر كما يقول سكرتير الجمعية فى الكثير من المكتبات العامة والعلمية بالولايات المتحدة وأوروبا والهند واليابان. أما الجمعية الأمريكية لليوجينيا فقد تركت أمر نشر مجلة، لجمعية الوراثة الأمريكية الشقيقة، التى أصدرت "مجلة الوراثة"، وهى مجلة بحثية كُرست جزئيا للوراثة البشرية.

وفرت كلتا الجمعيتين المتحدثين ليلقوا العشرات من المحاضرات سنويا. أنتجت الجماعة البريطانية فيلما عن اليوجينيا، وعرضَتْه بالمجان فى سينمات المدن الصغيرة عبر انجلترا وويلز واسكتلنده. وزعت كلتا الجمعيتين كتيبات ومواد دراسية على النوادى والمكتبات والمدارس، كان من بينها كتيب وضعته الجمعية الأمريكية يقول إنه لما كانت ثمار اليوجينيا لن تحصد إلا بعد أجيال عديدة، فإن الحركة اليوجينية - على عكس الحركات العادية السياسية أو الاجتماعية القصيرة العمر - هى شىء مثل تأسيس وتطوير المسيحية. هى شىء لابد أن يُسلَّم من عصر إلى عصر".

فى عام ١٩٢٦ نشرت الجمعية الأمريكية كتاب "اليوجينيا: سؤال وجواب"، أكد للقراء أن اليوجينيا ليست خطة لخلق سوبرمان، أو لتربية البشر كما تربى الحيوانات، كما بشَّر بأن اليوجينيا "ستزيد من عدد العباقرة" وسترعى "التزاوج الأكثر انتقائية"، وسينتج عنها حبا أكثر فى الزواج، ثم استمر:

س: هل اليوجينيا تعارض الإنجيل؟

ج: فى الإنجيل الكثير مما يعضد اليوجينيا. إنه يقول إنك لاتجنى من الشوك العنب.

س: هل اليوجينيا تعنى تعاطفا أقل مع التعساء غير الملائمين؟

ج: إنها تعنى تفهما أكبر لهم، ومحاولة أكثر واقعية لتخفيف معاناتهم، وذلك بعمل كل مايمكن لتقليل المعوقين وراثيا.

س: ماهو أثمن مافى الوجود؟

ج: البلازما الجرثومية البشرية.

تحركت الجمعية فى نفس هذا العام لتقيم مباراة يوجينية فى المواعظ، كان من بين محكميها تشارلس دافينبورت، ووليام ليون فيلبس الناقد الأدبى. أوحت المباراة بعدد قُدر بثلاثمائة موعظة، قُدم منها نحو ستين للتحكيم للحصول على الجوائز (٥٠٠، ٣٠٠، ٢٠٠ دولار). وفى مدينة كانساس، ميسورى، اختار الرابى هارى. هـ. ماير صلاةً خاصة فى عيد الأم أقامها مجلس النساء اليهوديات وراهبات المعبد، ليعلن "أمَا فعلنا شيئا كى لانسمح بأن يلوث دمنا بدم من درجة دنيا يتسرب إليه؟". وإذا كان لنا أن نؤمن بالمواعظ البروتستنتية، فإن الانجيل يعتبر كتابا يوجينيا، والمسيح نفسه قد ولد لعائلة تمثل "عملية طويلة من الانتخاب الدينى والأخلاقى". فى موعظة للكاهن الدكتور كينيث س. ماكارثر - من الكنيسة الموحدة فيدراليا بستيرلنج، ماساتشوستس - سنجد حديثا عن وراثة الذكاء وأفكاراً عن أن الصفات الأخلاقية والروحية تحدد هى الأخرى وراثيا. ولقد قدم شواهده من كلمات إنجيلية - أُعيدت صياغتها - قالها بولوس لتيموثى، تمجد "الإيمان الصادق الذى حلَّ أولا فى جدتك لويس، ثم فى أمك يونيس، ثم فيك أيضا". انضم الدكتور الكاهن ماكارثر (الذى حصلت موعظته على الجائزة الثانية) فيما بعد لعضوية فرع الجمعية بماساتشوستس، وأخبر رئيس الجمعية بأنه قد عنى كثيرا باليوجينيا لسنين طويلة، وأنه قد اهتم بمشاكل الوراثة كمربٍّ للماشية النقية، وأنه يفخر بحصوله على الكأس الفضية فى مسابقة أفضل العائلات فى معرض الولايات الشرقية عام ١٩٢٤.

بدأت مسابقات أفضل العائلات عام ١٩٢٠ فى توبيكا بمعرض كانساس الحر، ثم انتشرت تحت رعاية الجمعية اليوجينية الأمريكية لتقام كل عام فى سبع إلى عشر ولايات، ومعها عروض يوجينية. وعلى نهاية العقد بدأت تصل كل عام طلبات للمعاونة فى إقامة هذه المسابقات من أكثر من أربعين جهة، وبدأت الصحف المحلية تنشر فى صفحاتها الأولى أخبار المنافسات والفائزين فيها. كانت المنافسة بين العائلات الأفضل تعقد فى معارض بالولايات المتحدة تحت اسم "الثروة البشرية" (ذكر أحد الكتيبات "لقد حان الوقت الذى يجب فيه أن تطور الرعاية

البشرية المعتمدة علي القواعد المتبعة في الزراعة العلمية حاليا - إذا كان لأفضل عناصر حضارتنا أن تسود، بل إذا كان لها أن تبقى"). كان من حق كل أسرة متمتعة بالصحة أن تشترك، وكان على المتبارين أن يوفروا فاحصا مع التاريخ اليوجيني للعائلة، ليخضع كل أفراد العائلة لاختبار طبي (يشمل اختبار فاسرمان وتقييما نفسيا) ولاختبار الذكاء. وفي معرض كانساس الحر عام ١٩٢٤ تسلمت العائلات الرابحة (الصغيرة والمتوسطة والكبيرة) من حاكم الولاية جوناثان "تذكار العائلة الأفضل"، وحصل "أفراد المرتبة الأولى" على ميدالية كابر (عن اسم السناتور آرثر كابر) وعليها رسم مغلف بغلاف شفاف لأبوين يمدان ذراعيهما نحو طفل (يفترض أنه) أهلٌ للتكريم اليوجيني، أشار أحد كتيبات المعرض إلى أن "هذا التذكار وهذه الميدالية لهما من القيمة مايربو على كل جوائز مربى الماشية، بل وعلى بئر بترول في كانساس"، ذلك أن الصحة ثروة، والعقل السليم في جسم سليم هو أثمن مايمتلكه انسان".

كثيرا ماكانت المعارض المختلفة في انجلترا وأمريكا تعرض رسوما توضح قانوني الوراثة المندلية - وكانت هذه في العادة مجموعة صور لخنازير غينيا سوداء وبيضاء، مرتبة على لوحة رأسية تبين وراثة لون غطاء الجسم من جيل لجيل. وفي معرض كانساس الحر في عام ١٩٢٩ كان ثمة لوحات توضح "قانوني" الوراثة المندلية في الانسان: هجّن أبا "نقيا" مع أم "نقية" لتنتج أبناء "طبيعيين". هجن أبا شاذا مع أم "شاذة" وسيكون أبناؤهما "شواذاً". فإذا تم التهجين بين "نقي" و "شاذة" فسينجبان أطفالا "طبيعيين وإن كانوا ملوثين بعض الشيء، وسيكون بعض الأحفاد من الشواذ". هجّن "ملوثا" "بملوثة" ليكون ربع النسل "شاذا" وربعه "طبيعيا نقيا" ونصفه "ملوثا". ثمة لوحة أخرى تعلن "أن الصفات غير الملائمة - ضعف العقل والصرع والإجرام والجنون وإدمان المسكرات والإملاق وغيرها - تجرى في العائلات وتورث بالضبط مثل صفة اللون في خنازير غينيا". كان من بين معروضات الجمعية الأمريكية لليوجينيا في المعرض الخمسين بعد المائة بفيلادلفيا لوحة تقول بالأضواء المتوهجة: إن مائة دولار من أموالك تنفق كل خمس عشرة ثانية لعلاج أشخاص معوقين وراثيا، وانه في كل ثمان وأربعين ثانية يولد في الولايات المتحدة طفل متخلف، وفقط في كل سبع دقائق ونصف تنعم الولايات المتحدة بمولد "طفل ممتاز... ستكون لديه القدرة على القيام بأعمال ابداعية... شخص يصلح للقيادة". ثمة إعلان جداري يسأل "إلى متى نظل نحن الأمريكيون نهتم بأسلاف خنازيرنا وبواجننا ومواشينا - ونترك أسلاف أبنائنا للصدفة أو للعواطف (العمياء)؟".

قد يبدو هذا كله بالنسبة للأجيال التالية مادة من تأليف سنكلير لويس، لكن اليوجينيين الأنجلو أمريكيين قد عالجوا الأمور الوراثية بجدية بالغة، عارفين أنهم كانوا جزءاً من حركة عالمية. وعلى نهاية القرن كانت الجهود اليوجينية ـ وكثيرا ماكانت تسمى "صحة السلالة" ـ قد تطورت فى ا لسويد والنرويج والروسيا وسويسره وألمانيا وبولنده وفرنسا وايطاليا، ووصلت الحركة إلى اليابان وأمريكا اللاتينية فى العشرينات. وفى عام ١٩١٢ وصل لندن نحو سبعمائة وخمسين شخصا من انجلترا وأوروبا والولايات المتحدة، ليحضروا هناك المؤتمر الدولى الأول لليوجينيا، حيث ألقى آرثر بلّفور خطاب الافتتاح ليتلقى تصفيقا حادا عندما ذكر "نبالة الأمومة". قدم المشتركون فى المؤتمر نحو ثلاثين بحثا، وكان نواب الرئيس هم: كبير القضاة البريطانى، وونستون تشرشل، وأسقف ريبون، وألكسندر جراهام بيل، وتشارلس ويليام إليوت الرئيس السابق لجامعة هارفارد. كان يوجينيو بريطانيا وأمريكا يرتبطون فيما بينهم بروابط دقيقة للغاية، من خلال مايُنشر على جانبى المحيط من كتب ومقالات، ومن خلال تبادل انتخاب الأفراد فيما بين جمعيتيهما، ومن خلال الاتصال الشخصى.

قبل مؤتمر اليوجينيا بسنتين ظهرت مقالة عن "الحضارة" فى الطبعة الحادية عشرة من الموسوعة البريطانية تقول إن خطوط التقدم فى المستقبل لابد أن تتضمن "التحسين العضوى للسلالة من خلال التطبيق الواعى لقوانين الوراثة". أقر برنامج فرانسيس جالتون العلمى، وبدا أنه بعد طول انتظار قد انطلق ـ ثورة حقيقية هائلة.

* * *

من طبيعة الحركات الاجتماعية أنها كثيرا ماتنال تدعيم مجاميع متباينة تشاركها بعضا قليلا من الأفكار. لاحظ الوراثى الأمريكى رايموند بيرل عام ١٩٠٨ أن الراديكاليين والمحافظين على السواء يتفقون لدرجة كبيرة على أن اليوجينيا شىء قد جاء فى أوانه. وحُدت اليوجينيا فى بريطانيا بين راديكاليين مثل هافلوك إليس وأوتولين موريل وجورج برنارد شو وهارولد لاسكى وبياتريس سيدنى ويب، وبين مؤسسيين مثل ليونارد داروين، وأشراف الريف مثل ويليام إنج أسقف كاتدرائية سانت بول ـ الأسقف العابس كما كان يسمى، الذى أمتعته ملاحظة مزعومة على لسان الدوق ويلينجتون تقول إن معركة ووترلو قد كُسبت على ساحات اللعب فى إيتون. (ذكر الأسقف إنج لجاره فرانسيس جالتون أننا "نحيا فى جيل متكبر فاسد يستمع إلى كل

شخص سوى مَنْ يصدقه القول، يبدو أن الديمقداطية شيء لايمكن أن يعلَّم"). جمعت الحركة اليوجينية فى الولايات المتحدة بين محافظين كدافينبورت وتقدميين من أمثال جيلفورد بينشوت، وتشارلس ر. فان هايز، وتشارلس و. إليوت، ودافيد ستارجوردان، وراديكاليين مثل إيما جولدمان، وهيرمان ج. موللر - الذى حصل فيما بعد على جائزة نوبل عن أعماله فى الوراثة، والذى كان اشتراكيا وعاشقا (لفترة) للاتحاد السوفيتى. ومع كل هذه الاختلافات السياسية بين البيولوجيين، فقد اشتركوا جميعا فى الاهتمام بمجموعة من القضايا رأوها وثيقة الصلة بالوراثة - وكان بعضها هكذا حقا - كما كانوا على وجه العموم من نفس البيئة الاجتماعية.

كان معظم المتحمسين لليوجينيا فى الولايات المتحدة وانجلترا مثقفين من الطبقة الوسطى أو العليا، من البيض الأنجلو ساكسون البروتستانت أساسا. أما زعماء الحركة فكانوا على العموم من متيسرى الحال لا الأثرياء، وكان الكثير منهم من المهنيين - أطباء وعاملين اجتماعيين ورجال دين وكتاب وعديد من أساتذة الجامعة، وبالذات فى العلوم البيولوجية والاجتماعية. وكان لدى القادة والأتباع - على حد سواء - الوقت والميول لحضور المحاضرات والمناقشات، والاهتمام بالقضايا العامة، كما كانوا يرون ضرورة أن يتمشوا مع العلم، ثم أنهم وجهوا بوصلتهم الاجتماعية نحو الاكتشافات الجديدة. كان نصف أعضاء الجمعية اليوجينية البريطانية من النساء، وكان ربع موظفيها منهن. أما فى الولايات المتحدة، فقد كان دور النساء هامشيا فى الجمعية القومية، وبارزا فى الجمعيات الاقليمية. شكّل النساء فى كلا البلدين جزءا كبيرا من الجمهور اليوجينى. كانت اليوجينيا - التى تهتم بطبيعة الحال بصحة النسل ونوعيته - تركز على قضايا تهم النساء بالطبع، وذلك بحكم البيولوجيا والمعايير السائدة للطبقة الوسطى.

كان من الأفكار المألوفة لدى اليوجينيين أنه كلما ازدادت معرفة الرجال والنساء عن العائلة وصحة الأم كلما كان تسلحهم أفضل لتحسين السلالة. حذرت كتابات اليوجينيين على سبيل المثال من أن "الطباق يقلل القدرة الجنسية لحد كبير، إذ تتراخى الأعضاء وتذبل بقدر مايستعمل من طباق" وأن "جهاز الزوجة يصبح مشبعا بالنيكوتين، كما تتسمم خلاياها التناسلية. والمؤكد أنه ليس ثمة نسل قوى صحى يمكن أن ينتج عن مثل هذه المصادر". لقد دفعت اليوجينيا بالنساء إلى ساحة الأمور العامة - مثلما فعلت الحملات ضد السكّر والبغاء والبورنوجرافيا - وفتحت أمامهن سبيلا محترما للنشاط الاجتماعى، كما أنها فتحت لهن طريقا

للاشتراك فى عالم العلم ـ كعاملات اجتماعيات إن لم يكن كباحثات ـ وهذا عالم كان محظورا عليهن قبلا.

كانت الحركة اليوجينية ـ بمعنى ما ـ هى حركة "نادى الرجال والنساء" الذى أسسه كارل بيرسون ـ بتصميمها على تفحص العلاقة بين الجنسين ـ ولقد توسعت لتضم المجتمع المثقف وراء الأطلنطى. انقسم اليوجينيون على أنفسهم، تماما مثل أعضاء النادى، بالنسبة لمواضيع تتعلق بقضيتهم، لاسيما تلك المرتبطة بالجنسانية. كانت اليوجينية تكمل حركة الطهارة الاجتماعية التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر، بل وربما تكون قد بزغت جزئيا عنها. استهدفت تلك الحركة اصلاحا أخلاقيا لمجتمع يقبل البغاء وماأشبه، واتجهت بمزج الطب بالوصفات الأخلاقية إلى إنكار أن الطاقة الجنسية للمرأة تعادل مثيلتها عند الرجل، كما أصرت على ضرورة خفض التعبير الجنسى عند الذكر إلى مستواه عند الأنثى، وعلى إحلال رقة الأنثى وروحانيتها ونزعتها الأخلاقية محل شهوانية الرجل. ومن ثم فقد شجعت الحركة النساء على أن يتخذن دورا أكبر فى السيطرة على الأمور الجنسية فى الزواج، وبالتالى على عدد مرات الحمل. كانت الحركة تهدف بتكريمها الأمومة إلى أن تجعل الأمومة أمرا اختياريا، وهذا إنجاز تدعى أنه لن يفيد النساء فقط، وإنما سيعزز الاهتمام اليوجينى.

وجدت الطهارة الاجتماعية سبيلها إلى المواد اليوجينية المطبوعة. ذكر أحد الكتب أن النشاط الجنسى الزائد يؤدى إلى "تشتيت مبدأ الحياة"، واستشهد المؤلف بنتائج عالم لم يذكر اسمه، ليبين أن الحيوان المنوى بعد فترة من الانغماس فى الملذات الجنسية يصبح "واهنا"، أما بعد كبح الشهوة الجنسية فإنه يغدو أقوى وأكبر وأكثر نشاطا، ثم يستطرد "وعلى هذا، أليس لنا أن نتوقع أن يكون أطفال الآباء المجهدين ضعاف الأجسام، متعبين من الولادة؟". ثمة كتاب آخر يرى أن هناك قانونا لانخطئه من قوانين الطبيعة يقول بوجوب تجنب العلاقات الجنسية أثناء الحمل، فإذا مامارس الرجال شهواتهم الجنسية أثناء حمل زوجاتهم فسيفرسون "فى نسلهم القادم بنور الفسق، بجانب أن الأم ستعانى كثيرا قبل الولادة وأثناءها". استمرت مثل هذه المواقف حتى إلى أواخر عشرينات القرن العشرين. يقول بول بوينو مؤسس فرع الجمعية الأمريكية لليوجينيا فى جنوب كاليفورنيا ورئيس معهد العلاقات الأسرية فى لوس انجليوس تمثل المطلّقات نمطا غير مرغوب نسبيا من الناحية اليوجينية، فبهن نسبة أعلى من الأمراض

العقلية، وحياتهن المتوقعة أقصر، ونسبة العقم بهن عالية، حتى عندما يتم الطلاق بعد سنين طويلة من الزواج".

كان ثمة بالطبع آراء مختلفة تماما يعتنقها الجناح الاجتماعي الراديكالي لليوجينيا، وكان قدر كبير منها يحمل معه النبضة اليوتوبية لأواخر القرن التاسع عشر. قدم هافلوك إليس فعلا فكرة أن المرأة تستطيع أن تتمتع بالجنس تماما مثل الرجل .يتطلب التحسينُ اليوجيني عند إليس - الذي ضَمَّن الجزء السادس من كتابه "دراسات في سيكولوجيا الجنس" تعليقاتٍ عن اليوجينيا - يتطلب التحريرَ الجنسيَّ للمرأة من حجاب الاتجاهات الفكتورية العميقة. أعلن الراديكاليون الاجتماعيون أن تقييد الطلاق يفسد الصفات الوراثية لأنه يشجع إنجاب أطفال عن آباء غير متحابين. ووافق البعض مع فيكتوريا وودهال- الراديكالية المنادية بالمساواة بين الجنسين - على أن نظام الزواج بأكمله يعتبر "عقبة أمام تحسين سلالة البشر".

ذكر برنس مورُّو، أستاذ الطب بجامعة مدينة نيويورك ورئيس الجمعية الأمريكية للعلاج الوقائي، ذكر أمام مؤتمرعن سلامة الطفل عقد عام ١٩١٠ أن "مشكلة الجنس ترقد في جذور اليوجينيا". اتفق الراديكاليون الاجتماعيون ومعتنقو الطهارة الاجتماعية جميعا مع مورُّو أن الثقافة الجنسية لابد أن تُقَدَّم إلى "الجيل الصاعد، آباء وأمهات سلالة المستقبل". يرى مورو أن "أخطر مشكلة تواجه تدريس قوانين وصحة الجنس للشباب هي العاطفة التقليدية التي غَلَّفت كل مايتعلق بالحياة الجنسية بغلافٍ من الحياء والسرية، والتي قضت بأن يظل هذا (الصمت المقدس) باقيا". وفي تحد لهذه العاطفة التقليدية بدأت مجلة "أرينا"، ذات النفوذ في الطبقة الوسطى من الأمريكيين، بدأت تنشر في تسعينات القرن الماضي مقالات عن الثقافة الجنسية، والحب الحر، والوراثة والزواج. وفي عام ١٩١١ استمعت جمعية الثقافة اليوجينية إلى محاضرة لإديث إليس، زوجة هافلوك، عن "اللواط". ولقد اعتقد الكثير من اليوجينيين بضرورة تدريس فسيولوجيا الجنس للمراهقين، على الأقل لمنع الأمراض التناسلية، كما تمكنت نوادي الآباء - و - المدرسين، بمساعدة الجماعات اليوجينية، من أن تقدم محاضرات في "الصحة الاجتماعية" لتلاميذ المدارس تتحدث عن الجنس والوراثة والزواج. أضف إلى ذلك أن اليوجينيا قد تبنت باسم الحفاظ على صفات السلالة أو تحسينها، مواضيع كانت قبلا خارج نطاق أي نقاش محترم، لتساعد بذلك على تحول الأحاديث العامة تحولا دفع أحد الكتاب على عام ١٩١٢ لأن يعلق على "هواجس الجنس التي جعلتنا جميعا نثرثر في مواضيع كانت يوما خارج مجال الحديث".

ساعدت اليوجينيا أيضا فى إلقاء ضوء العلم على الخرافات المتعلقة بالخصب والحمل والولادة، ولاسيما قانون الطبع الأمى، وهذا ادعاء شائع - يتجذر فى العقائد الشعبية وفى النظرية اللاماركية - يقول إن خبرات الأم الحامل تشكل صفات نسلها. فى عام ١٨٨٧ اقترحت أليس ستوكهام - نصيرة الصحة الزوجية وتحديد النسل - اقترحت وهى تلمح إلى تجربة مسز بولس مع جنينها يوجينيت - أنه ربما كان من الأفضل أن تدرس الأمهات الحوامل علم التاريخ الطبيعى وعلم النبات حتى يتمكّن من انجاب أجاسيز أو هومبولت أو أودوبون آخر. أما ميشيل جاير، اليوجينى عالم الحيوان بجامعة ويسكونسن - فقد وضع قائمة ببعض النظريات المستقرة فى هذا الصدد "فلقد ترى الأم فأرا، فتلد طفلا على جلده وحمة تشبه الفأر... ولقد تلد طفلا جميلا إذا هى تأملت طويلا صورة طفل جميل... فإذا كانت تخشى النار أو إذا تملكتها رغبة قوية نحو الفراولة أو الطماطم... إلخ، فالمرجح أن تلد طفلا ذا وحمة حمراء - ولابد أن تكون الثمرة حمراء لأن الوحمة حمراء". استمرت بعض المطبوعات اليوجينية تنشر مثل هذه الأفكار الخاطئة، لكن الكتاب الموثوقين مثل جاير رفضوها وحاولوا أن يقدموا بدلا منها إدراكا طبيا وبيولوجيا معقولا فى قضايا الحمل. نجده يقول "لايستطيع الآباء أن يفعلوا شيئا لتحوير الصفات التى تحددها البلازما الجرثومية، لكنهم لابد أن يعرفوا أن البيئة السيئة قد تدمر البلازما الجرثومية الطيبة... إن الواجب المقدس الأوحد تجاه البلازما الجرثومية التى عُهِد بها إليهم هى أن يتأكدوا من أنهم سيسلمونها كاملة بأقصى امكاناتها صافيةً دون أن يعكرها سوء التغذية أو السموم أو الرذيلة".

طبيعى أن السموم والرذيلة ومأأشبه لاعلاقة لها ببعض الأمراض البشرية. كانت وراثة الأمراض موضوعا شائعا فى الكتابات اليوجينية، وانقسم الأطباء فى آرائهم عن الموضوع. درس كارل بيرسون وراثة ادمان الخمور، والسل، دراسةً بيومترية، ولقد أغضب الأطباء ورجال منع المسْكرات (كانت الفئتان تتداخلان كثيرا) بإصراره الصريح على أن القابلية للإصابة بالسل صفة وراثية - الأمر الذى يجعل اجراءات الصحة العامة لمقاومتها هزلا - أما القابلية لإدمان الكحوليات فليست كذلك (ذكر له أحد أصدقائه" إن الناس يهاجمونك بعنف بسبب تقريرك (عن إدمان الخمور)، البعض يقول إن هذا لايمكن أن يكون صحيحا لأن السُكر أمر كريه، والبعض الآخر يقول إن هذا قد يكون صحيحا ولكن القصد منه هو تشجيع الناس على تعاطى الخمور"). اختلف الأطباء أيضا فى ماهية الصفة الوراثية: المرض نفسه أم القابلية للاصابة به. لكن أبحاث دافينبورت وغيره أوضحت أن الكثير من الأمراض - مثل رَقَص هنتنجتون - يورث بالفعل.

تلقى مكتب دافينبورت للتسجيل اليوجينى المئات من الخطابات، يتساءل فيها مرسلوها عن مدى وراثية أمراض عائلاتهم أو عائلات زوجاتهم المرتقبة، وكتبت بعض النساء العقيمات إلى بيرسون يطلبن أن يجد لهن طريقة يحملن بها. كتب أحد الصحفيين الأمريكيين فى عدد يوليو ١٩١٣ من مجلة "كوزموبوليتان" يمجد "الرسالة الرائعة الملهمة للوراثة الجديدة"، لاسيما إذا ماتذكرنا محنة إنجاب أطفال "مرضى أو مشوهين أو معقدين أومنحرفين"، ثم أخبر قراءه أن "القاعدة البسيطة الشاملة هى هذه: لاتتزوج من عائلة تحمل عيبا من نوع ينتقل أيضا إلى سلالة عائلتك". أما مناقشة مثل هذه القضايا بصراحة فإنما يدل على دقة ملاحظة أدلى بها فى أوائل القرن تشارلس ريد، رئيس لجنة الولادة وأمراض النساء بالجمعية الطبية الأمريكية، إذ قال إن "موضوع الزواج - لاسيما من وجهة علاقته بالوراثة - قد أصبح يُناقَش الآن فى حجرات الاستقبال دون انحراف عن التقاليد. والجرائد والمجلات تناقش القضية دون تحفظ، والمدرسون والكهنة لايخرجون على آداب المجتمع إذا هم ناقشوها فى مواقعهم. ها تنشأ النوادى وتُطبع الكتب وتُلقى المحاضرات فى هذا الموضوع. ثم ان ذلك كله يتم بموافقة المجتمع، لابل وبتعضيد منه".

تشكّل سلوك اختيار الزوج أو الزوجة فى الطبقات المتوسطة من زمان طويل عن التقاليد العائلية مترادفة مع النصوص الدينية. وها تضمحل القيود العائلية بتغير مدى وحركة وتباين الحياة فى المدينة، كما تآكلت النصوص الدينية، بالطبع، من زمان، فى عواصف الشك العلمى. لقد شعر حتى رجال الدين بأن عليهم أن ينحازوا إلى عقيدة الحداثيين بضرورة توفيق الدين والأخلاق مع المناهج العلمية والقونين الطبيعية المعروفة. أعلن هارى إمرسون فوسديك كاهن كنيسة ريفرسايد بنيويورك أنْ "ليس هناك مايهم أكثر من أن نطبق على مشاكلنا الاجتماعية كل ماهو تحت أيدينا من معلومات موثقة فى مجال اليوجينيا". ولقد حمل الكاهن إنج اللواء اليوجينى إلى الجمهور البريطانى، فهاهو يخبر مستمعيه فى كلية بدفورد للبنات أن بعض المعرفة باليوجينيا "ستمنع فى حالات كثيرة الوقوع فى حب الشخص الخطأ".

اجتاز المثقفون الأمريكيون والإنجليز، المحافظون والإصلاحيون، إجتازوا أزمتهم الدينية وتحرروا من دينهم التوراتى - البعض فى حماس، والبعض فى إهمال أو فى يأس - ليعتنقوا دينا اسمه العلم. توقع جالتون أن توفر اليوجينيا بديلا دنيويا للدين التقليدى، ولقد قيل إنها قد وفرت ذلك بالفعل فى العقود الأولى من القرن العشرين، فى خضم اضطراب الحياة الصناعية

فى المدن الأنجلو أمريكية. ترنم ألبيرت ويجام فى كتابه "الوصايا العشر للعلم" بأن الله قد أعطانا اليوم الميكروسكوب والمطياف والتلسكوب وأنبوبة الاختبار ومنحنيات الاحصائيين، كى نتمكن من أن نخلق إلهامًا، وهذه الأدوات لم تضف فقط إلى مبادئنا الأخلاقية مجالا هائلا من الوصايا الجديدة (وصايا عشر جديدة تماما) وإنما قد زودتنا بتقنية لتنفيذ الوصايا القديمة".

هكذا بدا الأمر، إذا نظرنا إلى المنافع المادية التى أضفاها العلم على العالم الأنجلو أمريكى منذ أواخر القرن التاسع عشر - الضوء الكهربائى والترولى والماكينات، الحاكى والسينما والراديو، مواد الصباغة والمخصبات والبنزين، غازات التخدير والأدوية وأشعة اكس. أعلن تشارلس فان هايز الجيولوجى الشهير رئيس جامعة ويسكونسن "إننا نعرف عن الزراعة مايكفى كى يمكّننا إذا طبقناه من أن نضاعف الانتاج الزراعى القومى، إننا نعرف عن الأمراض مايكفى كى يمكننا إذا طبقناه أن نقضى عمليا على الأمراض المعدية فى الولايات المحدة خلال بضع عشرات من السنين، إننا نعرف عن اليوجينيا مايكفى كى يمكننا إذا طبقناه أن نتخلص تماما من المعوقين وراثيا خلال جيل واحد".

ومع هذه المعجزات الجديدة جاء كهنة جدد: العلماء - وبينهم عدد ليس بالقليل من الوراثيين. كان بين الكهنة اليوجينيين فى أمريكا الكثيرون من القادة الأوائل المسئولين عن نشر المندلية - بجانب دافينبورت كان هناك رايموند بيرل، وهيربرت س جيننجز (وكلاهما من جامعة جونزهوبكنز)، وكلارنس سى. ليتل رئيس جامعة ميتشجان الذى أسس فيما بعد معمل جاكسون فى مين، ومن أساتذة هارفارد إدوارد م. إيست ووليام ا. كاسل. وفى بريطانيا كان لليوجينيين أن يعتمدوا على مساعدة بيرسون، وأيضا مساعدة عالم البستنة تشارلس سى. هيرست، وف ا. ا. كرو عالم وراثة الحيوان الاسكتلندى، وعالم الاحصاء الألمعى رونالد ا. فيشر الذى كان له أن يخلف بيرسون على كرسى جالتون لليوجينيا، و ج. ب. س. هالدين المصلح الاجتماعى الجرىء الذى أنشأ علم وراثة العشائر، وجوليان هكسلى البيولوجى التطورى حفيد المدافع الكبير عن داروين. عمل البعض من هؤلاء بالمنظمات اليوجينية، أما غيرهم - ونخص بالذكر المندلىّ البريطانى الرائد ويليام بيتسون ونظيره الأمريكى بجامعة كولومبيا توماس هَنْط مورجان - فقد منحوا اليوجينيا تعضيدا صامتا لبضع سنين، إما برفضهم نقدها علنا، أو - وهو الأهم - بتوفير منتديات عامة لها فى الاجتماعات العلمية والمجلات العلمية. كتب الكثير من الوراثيين كتبا تحبذ اليوجينيا. من بين هذه كتاب من تأليف كاسل هو

"الوراثة اليوجينية" وكان أكثر المراجع استخداما فى هذا المجال، فظهرت منه أربع طبعات خلال الخمسة عشر عاما التالية لنشره أول مرة عام ١٩١٦. قدمت نسبة كبيرة من الكليات والجامعات الأمريكية (ومنها هارفارد، كولومبيا، كورنيل، براون، ويسكونسن، نورث إيسترن، بيركلى) قدمت مقررات تعليمية فى اليوجينيا حضرها الكثيرون، أو مقررات فى الوراثه تتضمن مادة يوجينية.

رضى الوراثيون بسهولة عن دورهم ككهنة. كان الوضع الصناعى الجديد قد دفع ممارسى العلوم الفيزيائية إلى مواقع السلطة والخدمة العامة. ازداد الطلب على الفيزيائيين والكيماويين للعمل بالمؤسسات الابداعية التى كانت تفتح معامل بحثية - مثل ويسترن إليكتريك، ده بونت، ستاندرد أويل نيوجرسى، كما تطلبت احتياجات تشكيل السياسة العامة فى مجالات مثل الغذاء والدواء، والاتصالات، والطيران، تطلبت جذب علماء الفيزياء إلى فلك الحكومة. لم يكن ثمة طلب كهذا على الوراثيين. لكن علم التحسين البيولوجى للإنسان قد فتح أمامهم طريقا للعمل مع الجمهور وخدمته. قدم هيربرت جيننجز فى كتابه "الأساس البيولوجى للطبيعة البشرية" الصادر عام ١٩٣٠، ملاحظاته علي "التوق إلى تطبيق العلوم البيولوجية على الشئون البشرية" فقال بارتياح واضح "ذهبَتْ إلى غير رجعة تلك الأيام التى كان البيولوجى فيها... يُعرض على الجمهور فى صورة مخلوق هزلى تمتلىء جيوبه بالثعابين والسمندل... إن الواجب يقتضى أن يعمل العالم على أسس علمية. إن ادارة الحياة والمجتمع لابد أن ترتكز على القواعد البيولوجية القويمة!... لقد غدت البيولوجيا علما شائعا بين الناس!".